في رحيل شاعر اليمن

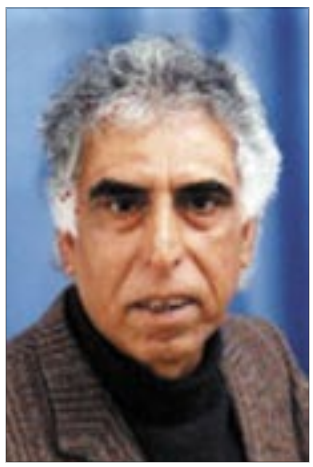

سعدي يوسف

أواسطَ شباط (فبراير)، وفي القاهرة، حيث كان الملتقى الشعريّ، التقيتُ الشاعر اليماني عبد الكريم الرازحي، الذي تربطني به صداقةُ أعوام وأعوام. كان لديّ الكثير ممّا يستدعي الأسئلةَ عن اليَمن وأهلها، وأصدقائي الكثار فيها. إلاّ أنني اكتفيتُ بسؤالٍ واحدٍ: كيف حال محمد حسين هيثم؟

أجابني الرازحي بلطفه المعهود: بخير. يعمل في مركز الدراسات كما تعرف. لكنه ازدادَ بدانةً، حتى لم يَعُدْ يستطيعُ ارتقاءَ درجتينِ إلى مكتبه في المركز.

والحقُّ أن هذا الأمر يعود إلى سنين خلتْ، إلى أيامي في عدن، التي امتدّت حتى نهايات ١٩٨٦، إذ كنتُ ألحَظُ محمد حسين هيثم يسير نحو البدانة بخطى بطيئة. وقد قلت له ذلك. آنَها لم تكن المسألة خطيرة، فالشباب شبابٌ، ومحمد حسين هيثم في بدايات خطواته الشعرية الواثقة.

ترافقنا، أنا، وهيثم، في رحلة استمرّت أياماً بين عدن وحضرموت، في محاولةٍ لقراءة المكان الشعريّ الأول للعرب: دمّون، قطن، حومل... إلخ.

وهيثم كان في محاولاته الشعرية الأولى، وفي تلهُّفه للإطلال على أسرارٍ من الصنعة.

في رحلة الحجّ تلك، كنتُ أكتبُ قصيدةً طويلةً. أكتبُها مُنَجّمةً، حسب طريقتي في كتابة القصائد الطوال. حرصتُ على أن يتملّى هيثم ما أُنجزُه يوماً بعد يوم. كنتُ أريد أن أُطْلِعَه على مكامن معينة في كتابة النصّ.

التجربة كانت نافعةً لنا، نحن الإثنين.

مع الوقت، ظلّ الرجل، وقد اطمأنّ إليّ، كما اطمأننتُ إليه، يُطْلِعُني على محاولاته. والحقُّ أنه كان يتقدم في الطريق بخطوات متسارعة مذهلة. ولربما كان الأبرز حركةً بين رفقته من الشعراء الشباب في عدن: مقبل، وعبد الرحمن، وسالمين، والحنَكي، وحتى شوقي شفيق الأقدم تجربةً.

وتمضي الأيام والقصائدُ بمحمد حسين هيثم ليغدو شاعر اليمن.

نبأُ رحيله داهمَني كطعنةٍ في الخاصرة.

لندن- ٢٠٠٧/٣/٥